**المحاضرة الثالثة : المنهج العقلي التأملي عند روني ديكارت :(1596-1650)**

**" ليس بالأمر الجديد عندما تبينت من أنني منذ حداثة سني قد تلقيت طائفة من الآراء الباطلة ،**

**، وكنت أحسبها صحيحة وحكمت حينئذ بأنه لابد لي ولو مرة في حياتي من الشروع الجدي في تخليص نفسي من كل الآراء التي تلقيتها في اعتقادي من قبل ، وأنه لابد من ابتداء كل شيء**

**من جديد وعلى أسس جديدة إذا كنت أريد أن أقيم في العلوم شيئا جديدا ومستقرا"**

**روني ديكارت – تأملات ميتافيزيقية .**

**إن الكلام عن الفيلسوف الفرنسي روني ديكارت يتجه بنا نحو الكلام عن مفاهيم أساسية ومهمة في الفلسفة الحديثة ، أسس لها هذا الفيلسوف الفرنسي ، واستحق من خلالها لقب "أب الفلسفة الحديثة" ، وهي المنهج العقلي ، الشك المنهجي الفلسفي ، اجتمعت كلها في مقولة "انا أفكر إذا أنا موجود" .**

**إن هذا الفكر المتميز نشأ في مرحلة فكرية مليئة بالأحداث كان لها الأثر الأكبر في بناء أنساق فلسفية مهمة ، فلا يمكن بأي حال من الأحوال فصل فكر ديكارت عن زمنه ، بداية من محاولات الإصلاح الديني إلى الثورة في العلوم ، ورفض منهج أرسطو وكذلك النزعة الفردية والدعوة إلى حرية التفكير وضرورة التخلص من سلطة الكنيسة .**

**فقد ساهم هذا الوضع في ظهور نزعة شكية أثرت على جميع نواح المعرفة والفكر وحتى الدين توسعت دائرتها في أوربا كلها ، وكان لفيلسوفنا نصيب وافر منها ، إذ أصيب بنزعة شكية كانت موجها له نحو بناء طريق جديد للمعرفة انطلاقا منها .**

**هذا وقد استند ديكارت في وضع منهجه على أسس ومبادئ الرياضيات والهندسة ، إذ يصرح في خلال عرضه لخطوات المنهج العقلي أنه استلهم مبادئه من منهج علماء الهندسة فيقول :" هذه السلاسل (يقصد خطوات المنهج الأربعة) الطويلة من الحجج وكلها بسيطة وسهلة التي اعتاد أصحاب علم الهندسة الاستعانة بها للوصول إلى أصعب براهينهم يسرت لي أن أتخيل أن كل الأشياء التي يمكن أن تقع في متناول المعرفة الإنسانية تتتابع على طريقة واحدة..." [[1]](#footnote-2)،ونجد كلامه هذا في كتابة "مقال في المنهج " الذي يعرض فيه لمنهجه العقلي ويحدد خطواته ، فكان بذلك صاحب المنهج العقلي ومؤسسه في الفلسفة الحديثة .**

**1/تعريف المنهج العقلي : هو المنهج الذي يعتمد على العقل في المعرفة ويعتبره معيارا لها ، أما ما ينتج عن الحواس فلا يمكن الأخذ والوثوق به لأنه غير صحيح ، فالعقلين هم أولئك الذين يؤمنون بأن :"العقل مصدر أكثر أهمية للمعرفة من التجربة الحسية ، وأن الفلاسفة يجب أن يفكروا إلى حد ما مثل الرياضيين "**[[2]](#footnote-3) **.**

**2/قواعد المنهج العقلي : يقول روني ديكارت :"إنها قواعد سهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يأخذ الباطل على أنه حق ، وتبلغ بالنفس نحو المعرفة الصحيحة بكل الأشياء التي تستطيع إدراكها دون أن تضيع في جهود غير نافعة "**[[3]](#footnote-4) **.**

**لكن قبل الخوض في الكلام عن قواعد المنهج يجب أولا أن ننطلق من المبادئ أو الأسس التي تعم المنهج كله وهي الحدس والاستنباط ، هذين المبدأين يتم من خلالهما فحص المعرفة وإدراك الحقيقة ، فهما بمثابة معايير لها ، وهما مختلفين إذ الأول يقابل المعرفة البديهية القبلية ، أما الاستنباط فهو المعرفة التي تحصل عن طريق عمليات منطقية ويمكن أن نفصل في هذا أكثر فيما يلي:**

**الحدس : إن توجه ديكارت نحو الحدس نابع من دون شك من المنهج الرياضي الذي كان بارعا فيه ،فالبديهيات في الهندسة تفهم بطريقة مباشرة دون البرهان عليها ، وهذا الفهم يقوم به العقل ،ومن ثمة تسمى هذه العملية الواضحة المباشرة في فهم القضايا بالحدس .**

**فديكارت ينطلق في التأسيس لمنهجه من فكرة وجود أفكار فطرية قبلية سابقة على التجربة واضحة بذاتها صادقة غير قابلة للشك ، فالحدس هو استعداد عقلي يدرك القضايا دون الحاجة إلى البرهان عليها ، وهي حقائق لا يمكن الشك فيها لبداهتها ، وهي ضرورية في المعرفة ،يجب الانطلاق منها ، فهو يقول :" لا أعني بالحدس شهادة الحواس ... وإنما أعني ما تتصوره النفس الخالصة المنتبهة تصورا ينشأ من نور العقل وحده ".**

**إن هذه البديهيات يمكن للعقل معرفتها بذاته مباشرة ، منها كما يذكر ديكارت في كتابه مقال في المنهج ،بديهية وجود الذات المفكرة ،وبديهية وجود الموضوع المدرك ،وكذلك بديهية وجود الذات الإلهية ، وهذه كلها مسلمات عقلية تدرك مباشرة عن طريق الحدس ،ولا نحتاج فيها إلى التجربة ولا إلى البرهان الرياضي .**

**يمكن أن نضرب هنا مثالا من نص ديكارت نفسه لنوضح مبدأ الحدس ،وهو مثال ارتبط ببديهية وجود الذات المفكرة ، يقول:"بينما كنت أريد أن أعتقد أن كل شيء باطل فقد كان حتميا لضرورة أن أكون أنا صاحب هذا التفكير شيئا من الأشياء ، ولما انتهيت إلى أن هذه الحقيقة (أنا أفكر إذا أنا موجود) كانت من الثبات والوثاقة واليقين بحيث لا يستطيع اللا أدريون زعزعتها بكل ما في فروضهم من شطط بالغ ، حكمت أني أستطيع مطمئنا أن آخذها مبدأ أول للفلسفة التي أتحراها "**[[4]](#footnote-5) **.**

**نفهم من هذا القول وغيره المذكور في نص ديكارت في مقال في المنهج في القسم الرابع بالتحديد : أن فكرة وجود الذات هي فكرة بديهية تحدسها الذات مباشرة بحكم أنها هي التي تفكر في الفكرة ، وكذلك فكرة وجود الله أو وجود مبدأ أعلى هي معرفة حدسية نسلم بها مباشرة لا نحتاج فيها إلى أي تجريب أو أي برهان رياضي ، والحدس بهذا المعنى هو نقطة انطلاق عملية عقلية جديدة وهي الاستنباط الذي يكن أن نعرفه على النحو التالي :**

**الاستنباط:**

**في الاصطلاح الفلسفي هو :" انتقال الذهن من قضيّة أو عدّة قضايا، هي المقدّمات، إلى قضيّة أخرى هي النتيجة وفق قواعد المنطق"**[[5]](#footnote-6)**.**

**هو عملية عقلية ينتقل فها الذهن من مقدمات إلى نتائج لازمة عن تلك المقدمات بالضرورة ، إذ أن المقدمات في الاستنباط هي البديهيات التي يسلم بها العقل أي المعرفة القبلية ، والاستنباط من حيث الدقة يأتي في المرتبة الثانية بعد البديهيات لأن الشك قد يتطرقه ،ومن ذلك قول ديكارت : إن الاستنباط اقل مرتبة من البداهة، فالفكرة البديهية لا تثير أدنى شك في صدقها ، أما الفكرة المستنبطة فيمكن الشك فيها " .**

**بعد تأكيد ديكارت على الحدس والاستنباط كدعامتين أساسيتين في المعرفة وضع قواعد المنهج وهي:**

**قواعد المنهج العقلي :**

**القاعدة الأولى : قاعدة البداهة : يقول :" لا أقبل شيئا على أنه حق ما لم أعرف يقينا أنه كذلك ، بمعنى أن أتجنب بعناية التهور والسبق إلى الحكم قبل النظر ، وأن لا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز ، بحيث لا يكون لي أي مجال لوضعه موضع الشك "**[[6]](#footnote-7)**.**

**إن البديهيات هي المسلمات التي تكون واضحة بذاتها ، وهذا يستلزم استبعاد الأحكام السابقة والأفكار المكتسبة إلا بعد فحصها والتأكد من بديهيتها أي صحتها ، فإذا كان فرانسيس بيكون في منهجه التجريبي يدعو إلى ضرورة تخليص العقل من الأوهام التي علقت به ويتجه إلى البحث عن المعرفة بعقل صاف فارغ من أي تأثيرات دينية أو لغوية أو فلسفية...كما بينا سابقا ، فإن ديكارت يدعو هو الآخر بدوره إلى فحص كل الأفكار وعدم التسرع في الحكم عليها ومن ذلك ضرورة الحذر من الذاتية والانقياد وراء العاطفة والميول إلى الأفكار الموروثة من المجتمع كالعادات أو الأفكار الدينية ، وأداة ديكارت في ذلك هي العقل الذي يعتبره ملكة فطرية و أعدل الأشياء قسمة بين الناس .**

**إن العقل حسب ديكارت يُمكن كل واحد من الوصول إلى الحقيقة ، بشرط أن يستخدمه استخداما صحيحا ، فالتفاوت في الفهم لا يرجع إلى تفاوت قدرة العقل على الإدراك ، بل إلى طريقة استخدام تلك الأداة ، ومنه يقول :"حيث أنه لا يكفي أن يكون الفكر جيدا ،المهم أن يطبق تطبيقا حسنا .**

**بعد هذه الخطوة التي يقوم فيها العقل بفحص جميع الأفكار و المكتسبات التي في عقليه ويخضعها للشك حتى يتحقق منها ، يضعنا ديكارت أمام القاعدة الثانية ، وهي قاعدة التحليل أو التقسيم .**

**القاعدة الثانية : قاعدة التحليل أو التقسيم :**

**هي عملية يقوم من خلالها العقل بتقسيم وتحليل المعضلة إلى أجزاء ودراسة كل جزء منفصلا عن الآخر ، يقول :"أن أقسم كل واحد من المعضلات التي سأختبرها إلى أجزاء قدر المستطاع ، عل قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه "** [[7]](#footnote-8)**.**

**القاعدة الثالثة : قاعدة التركيب :**

**يقول :" أن أسير أفكاري بنظام بادئا بأبسط الأمور وأسهلها معرفة كي أتدرج قليلا قليلا حتى أصل إلى معرفة أكثرها ترتيبا ، بل وأن أفرض ترتيبا بين الأمور التي لا يسبق بعضها الآخر بالطبع "** [[8]](#footnote-9)**،في هذه الخطوة الثالثة يقوم العقل فيها بإعادة التأليف بين العناصر التي تم تحليلها سابقا بطريقة مرتبة ومنظمة ، حتى يتمكن من إقامة علاقات مترابطة ومضبوطة حول موضوع الدراسة**

**القاعدة الرابعة : قاعدة الإحصاء :**

**"أن أعمل في كل الأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئا "**[[9]](#footnote-10) **، تختص هذه المرحلة بمراجعة كاملة لكل عناصر الموضوع ، والغرض منها التأكد من التطبيق الصحيح للخطوات و من عدم إهمال أو تجاوز أي شيء ، ويعلل ديكارت ضرورة هذه الخطوة الأخيرة بأن الإنسان قد يصيبه النسيان أو السهو وقد يقع في الخطأ لذلك يجب عليه القيام بهذه المراجعة للتأكد والتحقق .**

1. - روني ديكارت ، مقال في النهج ، ص132. [↑](#footnote-ref-2)
2. - وليام كلي رايت ،تاريخ الفلسفة الحديثة ،ترجمة محمود سيد أحمد ، تقديم ومراجعة امام عبد الفتاح امام ، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ،طبعة أولى 2010،بيروت ، ص64. [↑](#footnote-ref-3)
3. - روني ديكارت ، مقال في النهج ، ص [↑](#footnote-ref-4)
4. - روني ديكارت ، مقال في النهج ص 149. [↑](#footnote-ref-5)
5. - **مدكور، إبراهيم ، المعجم الفلسفي، الهيئة العامّة لشؤون المطابع. القاهرة: 1983.** [↑](#footnote-ref-6)
6. - روني ديكارت ، مقال في النهج ص ص130-131 [↑](#footnote-ref-7)
7. - روني ديكارت ، مقال في النهج ص131. [↑](#footnote-ref-8)
8. - روني ديكارت ، مقال في النهج ص 132. [↑](#footnote-ref-9)
9. - روني ديكارت ، مقال في النهج ص 132. [↑](#footnote-ref-10)